انتزعت جائزة BBC عن منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا

غادة شبير مبروك لكِ... مبروك للبنان

التزمت الموشح القديم

كنت في باريس.

نعم كنت في باريس يا محبّي باريس وأنا أخبركم فقط لأشعل نار الغيرة في قلوبكم.

انتهت الرحلة التي لم تدم سوى بضعة أيام وفي أمسيتي الأخيرة، قررت أن أشاهد فيلم la mome، الفيلم الذي يعرض قصة حياة المغنية الفرنسية إيديت بياف.

شاهدت الفيلم، وخرجت الى الشارع مصعوقة، مريضة، باكية، متأثرة، منبهرة أمام هذا الفيلم الرائع وتلك الفنانة الأسطورة التي أصبحت اليوم رمزا لباريس الماضي والحاضر.

جلست في اليوم التالي أنظر من شباك الطائرة التي تعود بي الى وطني الحبيب لبنان، أفكر ببلدي وبمطربات بلدي الرائعات.

وازدحمت الأسئلة في رأسي: لماذا؟ لماذا لا يصل صدى الإبداع في بلدي الا الى آذان صمّاء؟ لماذا لا نجيد التكريم كما يتقنه العالم الغربي بأسره؟ لماذا ولماذا ولماذا الى أن وصلت وعدت الى قواعدي سالمة جسديا ولكن مضطربة نفسيا.

وشاءت المصادفات أن أسمع وفي اليوم التالي الخبر السعيد الذي أعاد الثقة الى نفسي وحملني الى فوق:

العطربة اللبنانية الشابة غادة شبير نالت الجائزة الأولى لمسابقة إذاعة بي بي سي الإنكليزية لسنة 2007 عن منطقة الشرق الأوسط وشمال افريقيا (انتاج شركة Forward Music). لقد تفوّقت على الجميع، تفوقت على فنانين من كل أنحاء العالم بعدما حملت "الموشّح" في صوتها وسافرت به الى هناك.

فرحت وعادت الأسئلة تتخبّط في رأسي وطلبت لقاءها. أنا من سيسألها بعض الأسئلة التي تجول في خاطري علها تجيبني عن بعضها فأرتاح.

تواعدنا في اليوم التالي وكان اللقاء في مقهى، يزدحم بالعائلات التي تتناول طعام الغداء.

وصلت قبلها بقليل، نظرت من زجاج الواجهة الى الخارج انتظر قدومها، فرأيتها تقترب. ابتسمت لانتصارها وانتصارنا.

دخلت غادة الرابحة الأولى الى المقهى ومشت بين كل المجموعات التي تأكل وتشرب متجهة صوبي.

انتظرت أن يقف الجميع لها، مصفقا بحرارة، مهنّئا اياها، مبتسما لها ولموهبتها، لكن خاب ظني.

وصلت الىّ ضاحكة، قبلتني، وفرحت بوجودي معها بتواضع لافت وجلست وهي تتحدّث عن موضوعات أخرى بعيدة من الجائزة وكأنها تخجل من التحدث عن نفسها.

وكان اللقاء.

• مبروك.

- (ضاحكة) لم أنم جيدا. أنا مضطربة. لا أصدق.

• انت الأولى بعد تصفيات كبيرة. اختارتك اللجنة المتخصصة وأهدتك الجائزة. متى ستتسلمين ما استحققته فعلا؟

- في 24 نيسان، وفي حفلة كبيرة ستجرى في لندن، سأتسلّم الجائزة وسترافقني فرقة موسيقية لبنانية لتقدّم خمسا وأربعين دقيقة من الغناء الحي لكل من يريد أن يسمعني.

• وهل سيغطي لبنان هذا الحدث الكبير؟

- نعم. ستغطيه محطة ال بي سي على ما اظن.

• أعلم انك دخلت عالم الفن من بابه الأصيل. تعزفين على البيانو وعلى آلة العود. ماستر بالموزيكولوجي... عميدة... أستاذة في الغناء... مسؤولة عن قسم البحث في جامعة الكسليك.. مسؤولة في الكونسرفاتوار. هل انت راضية عن نفسك؟ عن انتشارك؟ عن وصولك الى الناس؟

- أنا أشعر بالراحة النفسية وبالإمتنان لكل من يقدّم اليّ التقدير المعنوي. أشكر الله أنني وضعت نفسي في مكان بعيد من الإبتذال والموجة الجارفة.

• والإنتشار؟

- نعم أعترف بأنني مع بعض زميلاتي، المتمسكات بالفن الأصيل والجميل، لم نصل بعد الى الإنتشار المطلوب لكننا نعمل على ذلك.

• كيف؟ ألا ترين أن الموجة الجارفة التي تتكلمين عنها تجرف كل شيء ثقيل فيعوم على وجهها الخفيف ويصل أسرع الى كل مكان؟

(ابتسمت غادة ولم تجبني فأكملت)

قد يكون الماضي الذي تعملين منقبّة عنه يبعدك عن الحاضر؟

- لا حاضر من دون ماضٍ.

• قد يقول المستمع: ماذا يفيدني الماضي فقد سمعته من قبل.

- لا. أنا قمت بدراسة عميقة تتناول الموشحات القديمة التي لم تصل الينا من قبل.

فالتسجيل بدأ فعليا عام 1900، الموشحات انتشرت قبل ذلك بكثير.

تناولت الموشحات لأقول إن من الممكن أن تغني الموشحات بشكل منفرد (سولو)، من الممكن أيضا أن تتوزّع بشكل مختلف، أن تحمل بعض التلاوين في الصوت.

• أين لبنان من الموشحات؟ ألم نسمع السيدة فيروز تغني الموشحات من قبل؟

- بلى. الأخوان رحباني تصرّفا بالموشحات بطريقة رائعة.

اعتمدا السولو والديو، دمجا بعض الموشحات بعضها ببعض واختلطت كلماتهما بكلمات الموشحات القديمة. كانت تجربة رائعة. وقد عمل بعض الموسيقيين أيضا في لبنان على تقديم الموشحات لكنني حاولت من خلال دراستي هذه أن ألتزم الموشح القديم مستعينة بقدرات أخرى تضفي على الموشح صورة واضحة وجديدة مستمدّة من الماضي القديم.

اشعر بالراحة النفسية

• ما هو الموشح؟

- انه وليد دمج العرب بالأندلس. انه اختلاط الحضارات. وهل اجمل من اختلاط الحضارات؟

• ما المشكلة غادة؟ لماذا لا تصلين مع بعض زملائك وزميلاتك الى الجمهور العريض بالسرعة نفسها التي يصل بها نجوم الغناء العربي الذين يلمعون اليوم وقد ينطفئون غدا؟

- انها مشكلة لا حل لها. مئات، لا بل ألوف المغنين والمغنيات يولدون يوميا، يفتشون عن ملحنين، يملكون المال، يشترون الأغنية ويسجلونها فورا، تهتم المحطات بالإعلانات، فتعتمد طريقة الماتراكاج... وتضرب الأغنية لأسبوع لشهر لشهرين وتختفي لتولد أخرى وأخرى.

انه ليس خياري. لقد اخترت الفن لإيصال ما أريد قوله من دون شروط ولا حدود.

أردت أن أعيد الموشح الى آذان الناس. ففعلت. إن سمعوني أنا ممنونة. وإن لم يسمعوني فهم أحرار. المهم أنني قلت ما أريد قوله.

كما انني سأغني الجديد أيضا وسأعمل على رسم هويتي الخاصة قريبا وسأتعاون مع فنانين من الجيل الجديد ولكنني سأحافظ على اقتناعاتي وأتمسك بها.

• والحل؟ ما هي الحلقة المفقودة التي تبعدكم، أنتم الأصيلين، عن الجمهور العريض؟

- لا أدري. قمت بدراستي المؤلفة من كتاب وأسطوانة.

الكتاب نال اعجاب لجنة المؤتمر في القاهرة وسينشر قريبا.

والأسطوانة نالت المرتبة الأولى ضمن جائزة بي بي سي العالمية.

أليس هذا الممر كافيا للوصول؟

• بلى. من تفضلين من الموسيقيين اللبنانيين اليوم؟

- أحب بعض التجارب الجديدة كزياد سحاب مثلا. وأحب زياد الرحباني كثيرا.

انه سيد درويش النصف الثاني من القرن العشرين... يقدّم في أغانيه الميلودي التي تصيب القلب مباشرة، هل سمعت ميلودي أغنية "كان غير شكل الزيتون" ما اجملها؟!

ورندحت غادة ميلودي الأغنية بصوتها العذب ونظرت الى ساعتها، فاعتذرت مني وقررت المغادرة...

خرجت من المكان كما دخلت، تحت نظري الذي يراقبها ترحل ولا يزال صوتها العذب يتردد في أذني...

أجابتني غادة بعض الأسئلة لكنها لم تستطع إزالة الإضطراب من نفسي.

وعادت كلمة لماذا تصدح في مخيلتي:

لماذا لم يصفق كل الموجودين هنا لتلك الصبية التي تستحق التصفيق؟

ولماذا لم تسمع تلك الرابحة التي نفتخر بها كلمة مبروك في ذلك المقهى الكبير؟

مش مهم... المبروك ستصل في يوم أو في آخر... فالمومبة الكبيرة لا تنام.

مبروك لغادة. مبروك للبنان.

كلوديا مرشليان